المبحث الثالث
وحدة الأديان

يرجع تأسيس هذا المصطلح إلى الحركة الماسونية العالمية ، التي تهدف إلى وحدة الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام ، وذلك لقيامها على الإيمان بالله تعالى ، وبالتّالي عدم التعصّب لدين من الأديان من أهله. ويختلف هذا التصوّر مع ما يعتقده المسلم من أنّه ما جاء دين قوم إلاّ لينسخ سابقه ، والإسلام ناسخ لما سبقه من الأديان بلا استثناء ، وأنّ الله لا يقبل أن يعبد إلاّ بما بعث به خاتم النبيّين محمّد ﷺ. فكانت دعوته ﷺ للنّاس كافّة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، برّهم وفاجرهم ، مؤمن وكافر ومنافق بلا استثناء ، حتّى يهدي الله عباده سبل السّلام. وقد يُظنّ أنّ دعوة توحيد الأديان والتي تعني في جوهرها التشويش على المسلمين وحملهم على ترك التمسّك بالإسلام والحرص عليه قد انتهت ، لكن وللأسف ولغفلة المسلمين فإنّ تلك الدّورة ما تزال قائمة بل وأصبحت أكثر خطرا ، لالتقاء مقاصد هذه الدعوة مع الأهداف الكبرى لمنظومة النظام الدّولي الجديد ، الذي تفرض قوانينه عولمة الثقافة والاقتصاد والمصالح السياسية والدّين كذلك.

لذلك فإنّ مشروع توحيد الأديان الذي يبشّرون به إنّما يحمل في طيّاته مقصدا خطيرا يتمثّل في محو الأديان لصالح مشاريع عنصرية خطيرة. فهو لا يعني جمع

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧.

الأديان على قاسم مشترك ، وخاصّة الأديان ذات الأصل التوحيدي ، وإنّما يهدف إلى إقامة « دين عالمي » جديد يحلّ محلّ الأديان السّابقة[١]. وذلك أمر مستحيل ، لتنافيه أولا مع الطبيعة الإنسانية والسّنن الكونية ، فثمّة أسباب للاختلاف بين البشر أكثر من أن تحصى ، ولقد أثبت التّاريخ الإنساني هذه الحقيقة ، وثانيا للاختلاف الجوهري بين دعوة الإسلام التوحيدية وبين الانحراف الذي أصاب باقي الأديان وأخرجها عن الخطّ الرسالي الذي ينتمي إليه كلّ الرسل والأنبياء. والإسلام دين النّاس كافّة ورحمة للعالمين ، لم يُكره أحدا على اعتناقه أو دخوله عُنوة ، لمخالفة ذلك مبدأ التكليف وتحمّل المسؤولية . بل أقرّ الإسلام وجود أديان أخرى يعتنقها النّاس برغم انحرافها وزيفها ، ولم يجعل ذلك سببا للمسلمين يتذرّعون به ليكرهوا أتباع تلك الديانات على تبديل معتقداتهم نحو الإسلام. وأيّ معنى لحريّة التديّن والاختيار وتحمّل مسؤولية مآلات ذلك بعد أن يكره الإنسان على أمر لم يُرده.

ولقد ذهب القرآن الكريم إلى أبعد من ذلك ، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ ﴾[٢] ، أي لهدمت صوامع الرّهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا[٣] ، فهي كلّها معرّضة للهدم ـ على قداستها وتخصيصها لعبادة الله ـ لا يشفع لها في نظر الباطل أنّ اسم

(١) انظر كتابنا: محاظرات في الفرق والمذاهب، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٢) سورة الحجّ : ٤٠.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٩ ، ٣/ ٢٥٢.

الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلاّ دفع الله النّاس بعضهم ببعض ، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها ، فالباطل متبجّح لا يكفّ ولا يقف عن العدوان إلاّ أن يُدفع بمثل القوّة التي يصول بها ويجول[١] .

وينفرد ابن عاشور[٢] بفهم آخر للآية ، فالمعنى عنده منصرف إلى ضرورة دفاع النّاس كافّة عن المسلمين: « لولا دفاع النّاس عن مواضع عبادة المسلمين ، لصري المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوية لملّة الشرك ، ولهدموا معابدهم من صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيرا ، قصدا منهم لمحو دعوة التّوحيد ومحقا للأديان المخالفة للشرك ، فذكر الصوامع والبيع ، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين » .

إنّ أقصى ما تتوق إليه البشرية هو حرية الفكر والعقيدة ، وهو التعبير الحيّ عن احترام كرامة الإنسانية ، واحترام العقل ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣] ، وكثيرة هي الآيات القرآنية التي تقرّر مبدأ الاختلاف: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[٤] ، ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾[٥] ، ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ

(١) سيّد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، طبعة ٢٥ / ١٩٩٦ ، ٤ / ١٧ / ٢٤٢٥.

(٢) التحرير والتنوير : ٨ / ١٧ / ٢٧٦.

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦.

(٤) سورة هود : ١١٨، ١١٩ .

(٥) سورة المائدة : ٤٨ .

مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [٢] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [٣] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [٤]. إلاّ أنّ لهذا الاختلاف مقتضياته وهو التدافع والتعاون. وكما أنّ الاختلاف آية من آيات الله تعالى في خلقه ، فإنّ التدافع هو أحد مقتضياته ، وبذلك تتحقّق مصالح العباد ، وهو ما ذهب إليه سيّد قطب[٥] بقوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٦]:

« وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النصّ القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيّار الحياة المتدفّق الصّاخب الموّار ، وهنا تتكشّف على مدّ البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالنّاس ، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات ، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبّرة تمسك بالخيوط جميعا ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح والنماء ، في نهاية المطاف .

لقد كانت الحياة كلّها تأسن وتتعفّن لولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض ، ولولا أنّ في طبيعة النّاس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم

---

(١) سورة يونس : ٩٩.

(٢) سورة هود : ١١٨.

(٣) سورة النحل : ٩٣ .

(٤) سورة الشورى : ٨ .

(٥) في ظلال القرآن : ١ / ٢ / ٢٧٠.

(٦) سورة البقرة : ٢٥١.

واتّجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنطلق الطاقات كلّها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظلّ أبدا يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة ، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء...» .

ولا يجب أن يستقرّ في ذهن المسلم أنّ القرآن الكريم يقرّ انحراف تلك الأديان والملل ، أو يعتبرها مقبولة عند الله تعالى ، فلقد راجت دعوة مشبوهة تستهدف تعزيز الدّعوة إلى وحدة الأديان مستعينة بنصوص من القرآن الكريم ، تفسّر بحسب أهواء دعاتها. فيأوّلون قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1] ، بأنّ جميع الأديان عند الله الإسلام ، واتُّخذت سندا لدعوة توحيد الأديان لاعتبار الأديان الثلاثة الكبرى امتدادا للإبراهيمية. وهو ما ذهب إليه محمود أبو ريّة في كتابه « دين الله واحد » ، حيث قام فيه بعرض تحليلي للأصول التّاريخية والعقائدية للأديان السماوية الثلاثة ، معتمدا على آيات قرآنية ومستشهدا بما ورد في « الكتاب المقدّس » ، يستهدف بذلك الانتصار إلى فكرة وحدة الأديان ، عارضا جملة آراء جمال الدّين الأفغاني ، وخاصّة محمّد عبده ، الذي أسهم بفاعلية في تأسيس جمعية التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة ، ثمّ أورد كلمة حاخام اليهود الأكبر ، الذي يعتبر أنّ تباين العقائد والأديان حكمة إلهية يصعب على المرء إدراك كنهها وكشف سرّها ، بَيْد أنّ هذا التباين لا يحول ـ بحسب رأيه ـ دون اتّحاد القلوب وصفاء النفوس[2] ، ثمّ أورد آراء للقس « إسحاق طيلر » حول

---

(١) سورة آل عمران : ١٩.

(٢) ص ١٩.

الإسلام والمسلمين ، مليئة بالشّبهات والدَّس ، بقصد تبليغ مفاهيم خاطئة للمسلمين ، حتّى لا يجدوا كبير فرق بين دعوة سيّدنا محمّد ﷺ الخاتمة وبين التّحريف الذي أصبح دينا في النصرانية. ويصرّح محمود أبو ريّة بقوله: « وإنّي لأرفع صوتي بالدّعوة إلى تأليف جمعية تربط بين أصحاب الفكر والعقل من المسلمين وأهل الكتاب جميعا ، وتعمل على تأليف القلوب بين أهل الأديان ، وصفاء النفوس بين جميع بني الإنسان »[1].

وقد نشر في بيروت عام ١٩٨٠ كتاب فيه دعوة للحكومة العالمية ووحدة الأديان ، نشرته جهة مجهولة باسم كاتب مستعار « مصطفى جحا » ، تحت عنوان « محنة العقل في الإسلام » جاء فيه: « هذا الدّين ، متى جاء سيؤكّد طبعا أنّ محمّدا ليس آخر الأنبياء ، وأنّ الإسلام ليس نظام الأوّلين والآخرين...أليس بقاؤنا في سلام دون الله ومحمّد أفضل من الحرب في سبيل الله ومحمّد » . كما أنّ مشروع توحيد الأديان يقتضي إخلاء العقول والأذهان من أيّة أفكار مُسبقة أو عقائد موروثة ، وهو ما دعى إليه مؤتمر شيكاغو بالولايات المتّحدة الأمريكية الذي عُقد في أواخر آب / أغسطس من عام ١٩٩٣ ، وقد سمّي « برلمان ١٩٩٣ لأديان العالم » ، حضره آلاف من ممثّلي الديانات العالمية ، وقد اختتم بنداء « من أجل تحقيق السلام العالمي من خلال الوحدة والاحترام المتبادل والتفاهم » ، وناشد رئيس اللّجنة الإفريقية الأمريكية ، التي تستضيف الاجتماع « ليون فيني الابن » الزعماء الدّينيين أن « ينحُّوا جانبا كلّ العوامل التي تفرّق بيننا ويتمسّكوا بتلك المشاعر والأفكار التي من شأنها أن توحّد بيننا » .

---

(١) ص ١٠٤.

إنّها دعوة صريحة للانسلاخ من كلّ عقائدنا الدينية التوحيدية التي جاء بها الدين الخاتم ، وبذلك تنكشف حقيقة هذا المشروع التدميري ، وهو ما ظهر للعيان ولم يعد خافيا على العامّة من المسلمين فضلا عن نخبهم ، خاصّة مع الحملات الهوجاء التي استهدفت الإسلام والمسلمين في عقر ديارهم. وما الحملات العسكرية وحركة الاستعمار الجديد ، وتدنيس حرمات المسلمين والتعدي على مقدّساتهم وأعراضهم بكلّ همجية ، إلاّ خير دليل على ما ذهبنا إليه في بداية عرضنا لهذه الفكرة. وأنّ الذين عجزوا عن تحقيقه بالإغراء والفتنة واستمالة أصحاب القلوب المريضة من المسلمين ، أرادوا فرضه بقوّة السلاح وإن أدى ذلك إلى إبادة شعوب بأكملها ، ولعلّ ما حصل في أفغانستان والعراق وكثير من البلاد الإسلامية يغني عن تقصي الأدلّة. وللأسف الكبير فقد انجرف في هذا التيّار كثير من روّاد الإصلاح في العالم العربي والإسلامي ، وقد أثر عن جمال الدّين الأفغاني قوله: « رجعت إلى أهل الأرض وبحثت في أهمّ أمورهم فوجدته في الدّين ، فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها ، فوجدت الموسويّة والعيسويّة والمحمّدية على الاتّفاق في المبدأ والغاية ، وإذا نقص في الواحده شيء من أوامر الخير استكملته الثانية ، وهنا لاح لي بارق كبير أن يتّحد أهل الأديان الثلاثة »[1]. إلاّ أنّ هذا الأمر يتعارض مع دلالة الآيات القرآنية التي تحدّد الموقف الإسلامي من هذه الدّعوة الباطلة ، والتي ما قامت إلاّ للطّعن في الدّين وإبعاد النّاس عن المعتقد الحقّ وبثّ بذرة الفساد ، وزرع أسباب الفتنة:

ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا

(١) منار الإسلام : عدد ٥ / سنة ١٦ ، جمادى الأولى ١٤١١ هـ ١٨ نوفمبر ١٩٩٠ م ص ٨٤ .

نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١].

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٢].

- ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٣].

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤].

وقال ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهودي ولا نصراني ثمّ يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلنا به إلاّ كان من أهل النّار** »[٥] ، فالكفر بمحمّد ﷺ كفر بالإسلام ، ولن يُقبل من الكافر به إيمان ولا عبادة ولو أقام على

(١) سورة آل عمران : ٦٤.

(٢) سورة المائدة : ٥١.

(٣) سورة المائدة : ٦٨.

(٤) سورة المائدة: ٧٢ـ٧٣.

(٥) سبق تخريجه .

دين سابق ، فكيف بمن يدعو لتوحيد الأديان وصهرها معا ، والقرآن يقول :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

*****

(١) سورة الأعراف : ١٥٨.